الإسلام دين كامل

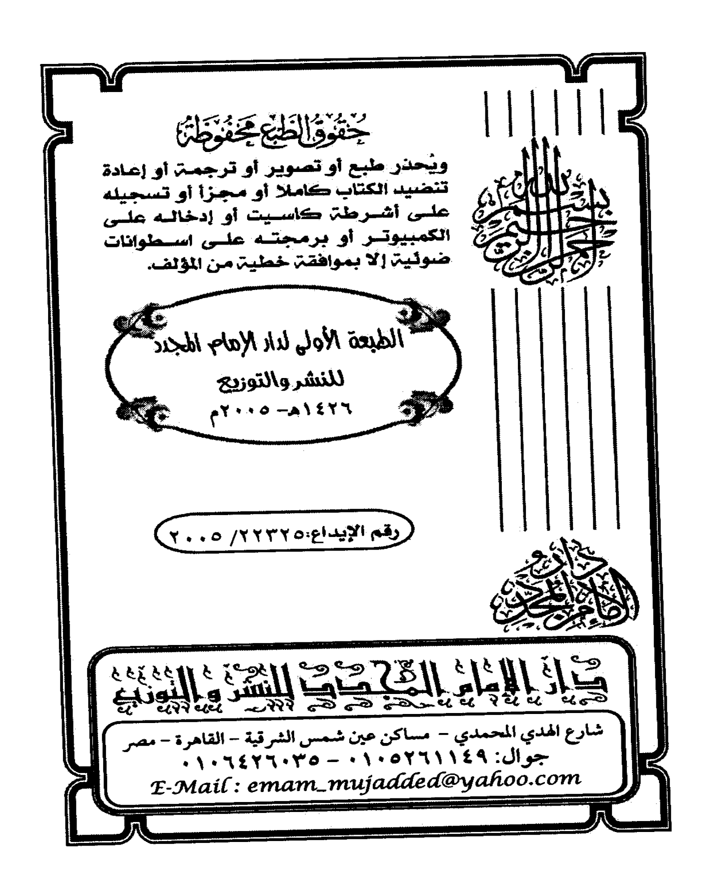
تأليف

العلامة الشيخ

محمد الأمين الشنقيطي

رحمه الله تعالى





بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى لدار الإمام المجدد للنشر والتوزيع

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع: ٢٢٣٢٥/ ٢٠٠٥

دار الإمام المجدد

دار الإمام المجدد للنشر والتوزيع

شارع الهدي المحمدي - مساكن عين شمس الشرقية - القاهرة - مصر

جوال: ٠١٠٥٢٦١١٤٩ - ٠١٠٦٤٢٦٠٣٥

E-Mail : emam_mujadded@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعد:

فهذه محاضرة ألقيتُها في المسجد النبوي بطلب من ملك المغرب، فطلب مني بعض إخواني تقييدها لنشرها فلبّيتُ طلبه راجيًا من الله أن ينفع بها.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ذلك اليوم يوم عرفة وهو يوم الجمعة في حجة الوداع، نزلت هذه الآية الكريمة والنبي صلى الله عليه وسلم واقفٌ بعرفات عشية ذلك اليوم، وعاش صلى الله عليه وسلم بعد نزولها إحدى وثمانين ليلة.

وقد صّرح اله تعالى في هذه الآية الكريمة أنهُ أكمل لنا دِيننا فلا ينقصه أبدًا، ولا يحتاج إلى زيادة أبدًا، ولذلك ختم الأنبياءَ بنبيِّنا، عليهم صلوات الله وسلامه جميعًا.

وصرَّح فيها أيضًا بأنه رَضِي لنا الإسلامَ دِينًا فلا يَسْخَطه أبدًا. ولِذا صّرح بأنه لا يقبل غَيره من أحد.

قال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩].

وفي إكمال الدين وبيان جميع أحكامه كلُّ نِعَم الدارين، ولذا قال: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣].

وهذه الآية الكريمة نصٌّ صريحٌ في أن دينَ الإسلام لم يترك شيئًا يحتاج إليه الخَلْق في الدنيا ولا في الآخرة إلا أوضحه وبيَّنه كائنًا ما كان.

وسنضرب لذلك المثل ببيان عشر مسائل عظام عليها مدار الدنيا من المسائل التي تهم العالم في الدارين، وفي البعض تنبيهٌ لطيفٌ على الكل.

(الأولى) التوحيد.

(الثانية) الوعظ.

(الثالثة) الفرق بين العمل الصالح وغيره.

(الرابعة) تحكيم غير الشرع الكريم.

(الخامسة) أحوال الاجتماع بين المجتمع.

(السادسة) الإقتصاد.

(السابعة) السياسة.

(الثامنة) مشكلة تسليط الكفار على المسلمين.

(التاسعة) مشكلة ضعف المسلمين عن مقاومة الكفار في العَدَدِ والعُدَدِ.

(العاشرة) مشكلة اختلاف القلوب بين المجتمع.

ونوضح علاج تلك المشاكل من القرآن، وهذه إشارة خاطفة إلى بيان جميع ذلك بالقرآن تنبيها به على غيره.

أما الأولى: وهي التوحيد، فقد عُلِمَ باستقراء القرآن أنه منقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده جل وعلا في ربوبيته، وهذا النوع من التوحيد جُبِلَتْ عليه فِطَرُ العقلاء.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾. [الزخرف: ٨٧].

وقال: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ إلى قوله: ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. [يونس: ٣١].

والآيات بنحو ذلك كثيرة.

وإنكار فرعون لهذا النوع في قوله: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ

ﭐلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣]. مكابرةً وتجاهل.

بدليل قوله: ﴿قَالَ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] الآية.

وقوله: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾.

[النمل: ١٤].

ولهذا كان القرآن ينزل بتقرير هذا النوع من التوحيد بصيغة استفهام التقرير:

كقوله: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقوله: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾.

[الأنعام: ١٦٤].

وقوله: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ﴾.

[الرعد: ١٦].

ونحو ذلك لأنهم يُقِرُّونَ به.

وهذا النوع من التوحيد لم ينفع الكفار لأنهم لم يوحّدوه جل وعلا في عبادته كما قال: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

[يوسف: ١٠٦].

﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣].

﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا

يَعْلَمُ﴾ [يونس: ١٨] الآية.

النوع الثاني: توحيده جل وعلا في عبادته، وهو الذي وقعت فيه جميع المعارك بين الرسل والأمم، وهو الذي أرسلت الرسل لتحقيقه.

وحاصلهُ هو معنى لا إلهَ إلا الله، فهو مبني على أصلين: هما النَّفيُ والإثبات من (لا إله إلا الله).

فمعنى النفي منها: خلع جميع أنواع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادة كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها: هو إفراده جل وعلا وحده بجميع أنواع العبادة على الوجه الذي شرع أن يُعبدَ به.

وجُلُّ القرآن في هذا النوع: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٥٦] الآية.

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥].

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٨].

والآيات في هذا كثيرة جدا.

النوع الثالث: هو توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين كما بينه جل وعلا.

(الأول) هو تنزيهه تعالى عن مشابهة صفات الحوادث

(والثاني) هو الإيمان بكل ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم حقيقة لا مجازًا، على الوجه اللائق بكماله وجلاله.

ومعلوم أنه لا يَصِف الله أعلم بالله منَ الله، ولا يصفُ الله بعدَ الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والله يقول عن نفسه: ﴿ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ويقول عن رسوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤].

فقد بين تعالى نفي المماثلة عنه بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ وبيَّن إثباتَ الصِّفاتِ له على الحقيقة بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

[الشورى: ١١].

فأول الآية يقضي بعدم التعطيل.

فيتضح من الآية أن الواجب إثبات الصفات حقيقة من غير تمثيل، ونفي المماثلة من غير تعطيل، وبيَّنَ عجز الخلق عن الإحاطة به جل وعلا، فقال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠].

وأما المسألة الثانية: التي هي الوعظ،فقد أجمع العلماء على أن الله تعالى لم يُنَزِلْ من السماء إلى الأرض واعظًا أكبر ولا زاجرًا أعظم من موعظة المراقبة والعلم، وهي أن يُلاحظَ الإنسان أن ربه جل وعلا رقيب عليه، عالم بكل ما يُخفى وما يعلن.

وضرب العلماء لهذا الواعظ الأكبر والزاجر الأعظم مثلًا يصيرُ به المعقول كالمحسوس، قالوا:

لو فرضنا مَلِكًا سفَّاكًا للدماء، قَتالًا للرجال، شديدَ البطش والنكال، وسيَّافُه قائم على رأسه، والنطع مبسوط، والسيف يقطر دمًا، وحول ذلك الملك بناته وأزواجه، أيخطر في البال أن يهم أحد من الحاضرين بريبة أو نيل حرام من بنات ذلك الملك وأزواجه وهو عالم به ناظر إليه؟

لا وكلا، ولله المثل الأعلى، بل كل الحاضرين يكونون خائفين، خاضعةً قلوبهُم، خاشعة عيونُهم، ساكنةً جوارحهم، غايةُ أمانيهم السلامةُ.

ولا شك ولله المثل الأعلى أن الله جل وعلا أعظم اطلاعًا وأوسع علمًا من ذلك المَلِك، ولا شك أنه أعظمُ نكالًا وأشدُّ بطشًا وأفظعُ عذابًا، وحِماه في أرضه محارمُه، ولو علم أهلُ بلا أن أميرَ البلاد يُصبحُ عالمًا بكل ما فعلوه بالليل لباتوا خائفين، وتركوا جميع المناكرِ خوفًا منه.

وقد بيَّن تعالى أن الحكمة التي خُلِق الخلَق من أجلها هي أن يَبْتليهُم، أي: يختبرهم ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝﴾ [الكهف: ٧].

قال في أول سورة هود: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ولم يقل: (أيكم أكثر عملًا).

وقال في المُلْك: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝﴾ [الملك: ٢].

وهاتان الآيتان تبيِّنان المراد من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولما كانت الحكمة في خَلق الخلائق الإختبار المذكور أراد جبريل أن يُبَيِّن للناس طريق النجاح في ذلك الإختبار فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: «أخبرني عن الإحسان؟» أي: وهو الذي خُلِق الخلْقُ لأجل الاختبار فيه، فبيَّن صلى الله عليه وسلم أن طريق

الإحسان هيَ هذا الزاجر الأكبر، والواعظ الأعظم المذكور فقال: «هو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١).

ولهذا لا تُقلّبُ ورقةً من المصحف الكريم إلا وجدتَ فيها هذا الواعظ الأعظمَ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق:١٨].

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾﴾ [الأعراف: ٧].

﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾. [هود:٥].

ونحو هذا في كل موضع من القرآن.

---

(١) رواه مسلم (٨)، من طريق عبد الله بن عمر عن أبيه وهو المشهور، كما رُوي في الصحيحين من طريق أبي هريرة رضي الله عنه، ولكن رواية مسلم أتمّ، وللحديث طرق أخرى.

وأما المسألة الثالثة: التي هي الفرق بين العمل الصالح وغيره؟ ففد بيَّن القرآن العظم أن العمل الصالح هو ما استكمل ثلاثة أمور ومتى اختلَّ واحد منها فلا نفع فيه لصاحبه يوم القيامة.

الأول: أن يكون مطابقًا لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ويقول: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾. [آل عمران: ٣١]الآية.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾. [الشورى: ٢١].

﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: ٥٩].

الثاني: أن يكون خالصًا لوجهه تعالى، لأنه يقول: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

ويقول: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾. [الزمر: ١١-١٥].

الثالث: أن يكون مبنيا على أساس العقيد، الصحيحة، لأن

العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [طه: ١١٢].

فقيد ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

وقال في غير المؤمن: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

إلى غير ذلك من الآيات.

وأما المسألة الرابعة: التي هي تحكيم غير الشرع الكريم، فقد بيَّن القرآن أنها كفر بواح وشرك بالله تعالى، ولما أَوْحَى الشيطان إلى كفار مكة أن يسألوا نبينا صلى الله عليه وسلم عن الشاة تُصْبِحُ مَيتَة من قتَلَها؟ فقال: «**الله قتلها**» فأوحى إليهم أن يقولوا له ما ذبحتموه بأيديكم حلال، وما ذبحه الله بيده الكريمة حرام، فأنتم إذن أحسن من الله.

أنزل الله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وعدم دخول الفاء على جملة ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ قرينة ظاهرة على تقدير لام توطئة القَسَم، فهو قَسَم من الله أقسَم به جل وعلا في

هذه الآية الكريمة على أن من أطاع الشيطان في تشريعه تحليل الميتة أنه مشرك، وهو شرك أكبر مُخْرِج عن الملّة الإسلامية بإجماع المسلمين، وسيوبِّخ الله القيامة مُرتكبه بقوله ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

وقال تعالى عن خليله: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [مريم: ٤٤].

أي: باتّباعه في تشريع الكفر والمعاصي.

وقال: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ۝﴾ [النساء: ١١٧].

أي: ما يعبدون إلا شيطانًا، وذلك باتباعهم تشريعه.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٧] الآية. **فسماهم شركاء لطاعتهم لهم في معصية الله بقتل الأولاد.**

ولما سأل عَديُّ بن حاتم رضي الله عنه، النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ [التوبة: ٣١].

أجابه النبي صلى الله عليه وسلم: بأن معنى اتخاذهم أربابًا هو اتباعهم لهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرَّمه، وهذا أمر لا نزاع فيه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [النساء: ٦٠].

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. [المائدة: ٤٤].

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٥].

فقوله: ﴿صِدْقًا﴾، أي: في الإخبار ﴿وَعَدْلًا﴾، أي: في الأحكام ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

وأما المسألة الخامسة: التي هي أحوال الاجتماع، فقد شَفَى فيها القرآن الغليلَ، وأنار فيها السبيلَ.

فانظر إلى ما يأمر الرئيس الكبير أن يفعله مع مجتمعهِ ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾ [الشعراء: ٢١٥].

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟

مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.

[آل عمران: ١٥٩].

وانظر إلى ما يأمر المجتمع العام أن يفعله مع رؤسائه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ﴾ [النساء: ٥٩].

وانظر إلى ما يأمُرُ الإنسان أن يفعله مع مجتمعه الخاص كأولاده وزوجته:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾ [التحريم: ٦].

وانظر كيف ينبهه على الحذَرِ والحزْمِ من مجتمعه الخاص، ويأمره إن عثر على ما لا ينبغي أن يعفو ويصفح.

فيأمره أولًا بالحزم والحذر، وثانيًا بالعفو الصفح.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ [التغابن: ١٤].

وانظر إلى ما يأمر أفراد المجتمع العام أن يتعاموا به فيما بينهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

إلى غير ذلك.

وَلما كان المجتمعُ لا يَسْلَمُ فرد من أفراده كائنًا من كان من مُناوِئٍ يُناوِئُه، ومُعادي يُعاديه مِنْ مجتمعه الإنسي والجني.

وليس يخلو المرءُ من ضدّ ولو حاول العزلةَ في رأس الجبل، وكان كل فرد محتاجًا إلى علاج هذا الداء الذي عمَّت به البلوى.

أوضح تعالى علاجه في ثلاثة مواضع من كتابه، فيها أن علاج مُناوأةِ الإنسي هو الإعراض عن إساءته ومُقابلتها بالإحسان، وأن شيطان الجن لا علاج لدائه.

إلا الإستعاذة بالله من شره:

الموضعُ الأول: قوله تعالى في أخريات الأعراف:

في الإنسي: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وفي نظيره من شياطين الجن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

الموضع الثاني: في سورة المؤمنون.

قال فيه في الآية: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٦].

وفي نظيره الآخر: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ۝ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧، ٩٨].

الموضع الثالث: في فصِّلت.

وقد زاد فيه تعالى التصريح بأن ذلك العلاج السماوي يقطع ذلك الداء الشيطاني، وزاد فيه أيضا أن ذلك العلاج السماوي لا يُعطى لكل الناس بل لا يُعطَاهُ إلا صاحب النصيب الأوفر والحظِّ الأكبر.

قال فيه في الآية: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

وقال في نظيره الآخر: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦].

وبيّن في مواضع أخرى أن ذلك الرفق واللين لخصوص المسلمين دون الكافرين.

قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾.
[التحريم: ٩].

فالشدةُ في محل اللين حُمقٌ وخَرَقٌ، واللينُ في محل إذا الشدة ضعفٌ وخَوَرٌ:

إذا قيل حِلمٌ قُل فَللحِلم موضعٌ   وحِلم الفتى في غير موضعه جهلٌ

وأما المسألة السادسة: التي هي مسألة الإقتصاد، فقد أوضح القرآن أصولها التي يرجع إليها جميع الفروع، وذلك أن مسائل الإقتصاد راجعه إلى أصلين:

الأول: حُسن النظر في اكتساب المال.

الثاني: حُسن النظر في صرفه في مصارِفه.

فانظر كيف فتح الله في كتابه الطرق إلى اكتساب المال بالأسباب المناسبة للمروءة والدّين، وأنار السبيل في ذلك.

قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾. [المزمل: ٢٠].

وقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾. [البقرة: ١٩٨].

وقال: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

وقال: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩].

إلى غير ذلك.

وانظر كيف أمر بالاقتصاد في الصرف:

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾. [الإسراء: ٢٩].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٩].

وانظر كيف ينهى عن الصَّرف فيما لا يحل الصرف فيه: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وأما المسألة السابعة: التي هي السياسة فقد بيَّن القرآن أصولها وأنار معالمها، وأوضح طرقها.

وذلك أن السياسة التي هي مصدرُ ساس يسوس إذا دبر الأمور وأدار الشئون تنقسم إلى قسمين: خارجية، وداخلية.

أما الخارجية، فمدارها على أصلين:

أحدهما: إعداد القوة الكافية لقمع العدو والقضاء عليه.

وقد قال تعالى في هذا الأصل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

الثاني: الوحدة الصحيحة الشاملة حول تلك القوة.

وقد قال تعالى في ذلك: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقد أوضح القرآن ما يتبع ذلك من الصُّلح والهدنة ونَبذِ العهود إذا اقتضى الأمر ذلك.

قال: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ [التوبة: ٤].

وقال: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾.
[الأنفال: ٥٨].

وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾.
[التوبة: ٣].

وأَمَرَ بالحذر، والتحرّز من مكائدهم، وانتهازهم الفُرصَ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ الآية [النساء: ٧١].

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ الآية [النساء: ١٠٢].

ونحو ذلك من الآيات.

وأما السياسة الداخلية، فمسائلها راجعة إلى نشر الأمن والطمأنينة داخل المجتمع، وكفَّ المظالم، وردَّ الحقوق إلى أهلها.

والجواهر العظام التي عليها مدار السياسة الداخلية ستة:

الأول: الدِّين، وقد جاء الشرع بالمحافظة عليه.

ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «**مَنْ بدَّل دينه فاقتلوه**»[1].

وفي ذلك ردع بالغ عن تبديل الدين وإضاعته.

الثاني: الأنفس، وقد شَرَع الله في القرآن القِصَاص محافظة عليها.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الآية [البقرة: ١٧٩].

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ الآية [البقرة: ١٧٨].

---

(١) رواه البخاري (٣٠١٧).

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

الثالث: العقول، وقد جاء القرآن بالمحافظة عليها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

[المائدة: ٩٠].

وفي الحديث: «**كل مُسْكِرٍ حرام، ما أسكر كثيرهُ فقليلُه حرام**»(١).

ولأجل المحافظة على العقول: وجب الحَدُّ على شارب الخمر.

الرابع: الأنسابُ، وللمحافظة عليها شرع الله حد الزنا.

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢].

الخامس: الأعراض، ولأجل المحافظة عليها شرع الله جلد القاذف ثمانين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [النور: ٤] الآية.

السادس: الأموال، ولأجل المحافظة عليها شرع الله قطع (يد)

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٣٩٢)، وأحمد (٥٦١٦)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ١١٢٤)، كما روى شطره الأول البخاري (٤٣٤٣)، ومسلم (١٧٣٣)، وروى شطره الثاني أبو داود (٣٦٨١)، والترمذي (١٨٦٥)، والنسائي (٥٦٠٧)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في صحيح سنن أبي داود (٣/ ٣٢٧)، وصحيح الجامع (٥٥٣٠).

السارق.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [المائدة: ٣٨] الآية.

فتبيَّن أنه من الواضح أن اتبّاعَ القرآن كفيل للمجتمع بجميع مصالحه الداخلية والخارجية.

وأما المسألة الثامنة: التي هي تسليط الكفار على المسلمين، فقد استَشْكَلَهَا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موجود بين أظهرهم، وأفتى الله جل وعلا فيها بنفسه في كتابه فَتوى سماوِيَّة أزال بها ذلك الإشكال، وذلك أنه لما وقع بالمسلمين ما وقع يوم أُحُد استشكلوا ذلك، فقالوا: كيف يُدال منا المشركون ويُسلَّطوا علينا، ونحن على الحق، وهم على الباطل؟

فأفتاهم الله في ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

وقوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ **أوضحه على التحقيق بقوله**: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾.

[آل عمران: ١٥٢].

فبيَّن في هذه الفتوى السماوية أن سبب تسليط الكفار عليهم جاءهم من قِبَلِ أنفسهم، وأنه هو فشلُهُم وتنازُعُهم في الأمر وعصيان بعضهم الرسول ورغبتهم في الدنيا، وذلك أنّ الرُّماةَ الذين كانوا بسَفِح الجبل يمنعون الكفار أن يأتوا المسلمين من جهة ظهورهم، طمعوا في الغنيمة عند هزيمة المشركين في أوّل الأمر فتركوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم لأَجْلِ رغبتهم في عَرَضٍ من الدنيا ينَالونه.

وأما المسألة التاسعة: التي هي مسألة ضعف المسلمين وقلة عددهم وعددهم بالنسبة إلى الكفار، فقد أوضح الله جل وعلا علاجها في كتابة، فبيَّن أنه إن عَلِم مِنْ قلوبِ عباده الإخلاصِ كما ينبغي كان من نتائج ذلك الإخلاص أن يقهروا ويغلبوا من هو أقوى منهم، ولذا لما علم جل وعلا من أهل بيعة الرضوان الإخلاص كما ينبغي ونوَّهَ بإخلاصهم في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾.

[الفتح: ١٨].

بيَّن أن من نتائج ذلك الإخلاص أنه تعالى يجعلهم قادرين على ما لم يقدروا عليه.

قال: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ [الفتح: ٢١].

فصرح بأنهم غير قادرين عليها وأنه أحاط بها فأقدرهم عليها وجعلها غنيمة لهم لما علم من إخلاصهم.

ولذلك لما ضَرَبَ الكُفَّارُ على المسلمين في غزوة الأحزاب ذلك الحصار العسكري العظيم المذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠-١١].

كان علاج هذا الضعف والحصار العسكري الإخلاص لله وقوّة الإيمان به، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

فكان من نتائج ذلك الإخلاص ما ذكره الله بقوله: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

وهذا الذي نصرهم الله به ما كانوا يظنونه، وهو الملائكة

والريح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. [الأحزاب: ٩].

ولأجل هذا كان من الأدلة على صحة دين الإسلام أن الطائفة القليلة الضعيفة المتمسكة به تَغلبُ الكثيرةَ القَويَّة الكافرة: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾.

[البقرة: ٢٤٩].

ولذلك سمّي تعالى يوم بدر آية وبيّنة وفرقانًا لدلالته على صحة دين الإسلام.

قال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ [آل عمران: ١٣] الآية، وذلك يوم بدر.

وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] الآية، وذلك يوم بدر.

وقال: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢] الآية.

وذلك يوم بدر على ما حققه بعضهم.

ولا شك أن غلبة الفئة القليلة الضعيفة المؤمنة للكثيرة القوية الكافرة دليلٌ على أنها على الحق، وأن الله هو الذي نصرها.

كما قال في وقعة بدر: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

[آل عمران: ١٢٣].

وقال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾. [الأنفال: ١٢].

والمؤمنون الذين وعدهم الله بالنصر، وبيَّن الله تعالى صفاتهم وميَّزهم بها عن غيرهم قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

ثم ميزَّهم عن غيرهم بصفاتهم في قوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾. [الحج: ٤١].

وهذا العلاج الذي أشرنا إليه أنه علاج للحصار العسكري، أشار تعالى في سورة المنافقين إلى أنه أيضًا علاج للحصار الاقتصادي.

وذلك في قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ [المنافقون:٧].

وهذا الذي أراد المنافقون أن يفعلوه بالمسلمين هو عين الحصار الاقتصادي، وقد أشار تعالى إلى أن علاجه قوة الأيمان به وصدقُ التوجُّه إليه جل وعلا بقوله: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

لأن من بيده خزائن السموات والأرض لا يضيع مُلْتجئًا إليه مطيعًا له: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وبيّن ذلك أيضًا بقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٢٨].

وأما المسألة العاشرة: التي هي مشكلة اختلاف القلوب، فقد بين تعالى في سورة الحشر أن سببها عدم العقل بقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

ثم بين السبب بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحشر: ١٤].

ودواء ضعف العقل هو إنارته باتّباع نور الوحي؛ لأن الوحي يرشد إلى المصالح التي تقصر عنها العقول.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فبيّن في هذه الآية أن نور الإيمان يحيا به مَن كان ميتًا ويضيء له الطريق التي يمشي فيها.

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وبالجملة فالمصالح البشرية التي بها نظام الدنيا راجعة إلى ثلاثة أنواع: الأول: دَرْءُ المفاسد، المعروف عند أهل الأصول بالضروريات، وحاصله دفع الضرر عن الستة التي ذكرنا قبل، أعني الدين والنفس والعقل والنَّسَب والعِرْض والمال.

الثاني: جلب المصالح، المعروف عند أهل الأصول بالحاجات، ومن فروعه البيوع على القول بذلك، والإجارات، وعامَّة المصالح المتَبَادلَة بين أفراد المجتمع على الوجه الشرعي.

النوع الثالث: التحلي بمكارم الأخلاق والجري على محاسن العادات، المعروف عند أهل الأصول بالتحسينات والتتميمات ومن فروعه خصال الفطْرة كإعفاء اللحية وقص الشارب إلخ، ومن فروعه أيضًا تحريم المستقذرات، ووجوب الإنفاق على الأقارب الفقراء.

وكل هذه المصالح لا يمكن شَيْءٌ أشد محافظة عليها بالطرق الحكيمة السليمة من دين الإسلام.

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود: ١].

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.